يجب أن نعيش

كان عازف الكمان الأول ينظر إلى الزامر فى البوق الكبير ويعجب لماذا يوالى النفخ وإخراج هذه الأصوات التى يختلقها ويدسها على اللحن، ثم ينقل بصره إلى المدير فيزداد عجبه، فهو أيضاً لا يزال يومئ إلى الزامرين فى الأبواق ويدعوهم بالعصا إلى الاستمرار.

ماذا حدث؟ كان يجب أن تسكت هذه الأصوات فجأة بالطرقات الثلاث على الطبل الكبير لتهيئ له دخولا خفيفاً هادئاً.. ولكن الأبواق لا تزال فى صخبها المرتجل، وضارب الطبل لا يزال رافعاً يده بمطارقه منتظراً أمر الطرق من العصا المشغولة بالناحية الأخرى.

ونظر إلى الأوراق المثبتة أمامه وساءل متى يبدأ دخوله؟ لقد فات الأوان وتأخر كثيراً. يجب أن يبدأ الآن.. وعاد يحملق فى العصا التى تهتز فى يد صاحبها فى عنف مثير، ولكنها لم تأمره.. وظلت الأبواق تدوى.

وأحس بضيق شديد، وهمّ أن يقف فينتبه المدير، ولكن ساقيه لم تحتملاه وتهاوى فى كرسيه ككومة من القش. يجب أن يبدأ، فلا ريب أنه أخطأ التقدير؛ فقد قال له المدير أمس إنه دخل متأخراً بعض الشئ، وإنه أكل بعض الأصوات.

ولكن هذه الأبواق ألا تسكت!

ورأى ألا ينتظر أكثر من هذا، فرفع القوس ودفعه على الأوتار بيد مضطربة دفعاً شديداً، فأزعجته الأصوات التى أصدرها فتوقف فجأة. وسمع فى اللحظة التى تلت هذا السكون المفاجئ طبولا وأبواقاً وصيحات تزأر وتهدر، ورأى العصا، وكأنها تقسمت إلى عشر أمثالها، تقترب من وجهه حتى لتكاد تمسه وتومئ إليه جميعاً بالأمر الذى انتظره طويلا. وجاهد أن يظل قابضاً على كمانه، ولكنها تفلتت من أصابعه وهوت مع القوس.. ومعه.

وأسرع إليه زملاؤه يحملونه إلى غرفة قريبة ، ولكنه افاق فى الطريق وإن كانت عينه لاتزال زائغة ، ونظر إلى المدير الذى كان قرب رأسه بصوت متقطع غير واع : « لقد دخلت متأخراً هذه الليلة أيضاً . . . »

ولكنه حين أفاق وارتد إليه رشده كاملا ذكر أنه لم يتأخر ، فقد دوره فى العزف لم يأت بعد ، وإنما هى بوادر هذه النوبة التى أصابته أضا معالم اللحن من رأسه ومسخت الأصوات فى أذنيه .

وتحركت شفتاه وهمس : « هذه آخر مرة » .

ولم يسمع همسه أحد ، ولكن زميلا ظن أنه سمع شيئاً ! فسأله : « ماذا » فأجاب : « لا شئ . . . » ثم خرج .

وسار فى الطريق لا يدرى إلى أين يذهب ؛ فهو لا يريد أن يعود إلى غرفته فى هذا البيت الذى كان يحبه ويدخله فى خشوع ، كأنه معبد مقدس من معابد الصين ، ويحمل لسكانه لوناً من احترام الآلهة . إنهم فنانون . . . فهم أيضا آلهة صغيرة خالقة . وقد اختاروا هذا البيت يتمون فيه صنعتهم ، ويفرغون فيه لفنهم . وراقته فكرة هذه الحياة التى تعينه على التصنيف فى الموسيقى فسكن غرفة فى البيت .

ثم كشف على الزمن أنهم يحبون حياة حظها من التركيز الفنى قليل . وكان فى طبعه أن يأخذ نفسه والناس بمقاييس دقيقة قاسية ، ولكنه ، لسبب لايدريه ، كان يجفل من أن يصدر على جيرانه هؤلاء حكما حازماً . وكلما ساءل نفسه : أهم فنانون خالقون ؟ أم هذه حياة مختلقة زائفة ، وهؤلاء إنتاجهم ثرثرة وخلقهم هراء ؟ كان يهرب من الحكم كأنه يوشك أن يقطع أعناقاً بريئة .

ولكنه على كل حال ، قضى فى غرفته هذه التى يخشى الليلة دخولها أوقاتاً سعيدة حلوة ، عكف فيها على فنه وأقبل عليه بشوق العاشق وحرارته ، وعرف فيها قسوة الفن حين يستعصى ويأبى الإفصاح ، وذاق مرارة الصراع مع الأصوات قبل أن يأسرها وينظمها ألحاناً ، وجاش كيانه بالفرحة الطليقة حين يقوم عن مائدة العمل ويهمس لنفسه : « لقد صنعت الليلة شيئاً » .

وكانت هذه كل دنياه . فما يعرف أنه خلق إلا ليجمع هذه الألحان التى تطوف برأسه دائماً ، منذ درس الأصوات وبدأ يدرك أسرارها . وتخاذلت رغباته ومطالبه من هذه الدنيا ، حين رأته يضعها جميعاً تحت قدمه ويخنقها

وهو يركع في محراب فنه . وكانت براعته النادرة في العزف ترفع قدره عند زملائه ومدير الفرقة ، ولكنه كان لا يأبه لهذا أو يهتم به ؛ فقد كان يؤمن بأن مكانه ليس أمام الحامل الحديدى للأوراق الموسيقية بين أفراد الفرقة ينتظر أمر المدير بالابتداء والانتهاء ، ويذهب يكرر أصواتاً من صنع غيره ، كالطفل الذى تدفع الكلمات فى حلقه دفعاً ، ليكررها أمام الأضياف .

إنه لم يخلق ليكون عازفاً . . . بل مؤلفاً .

وحمل هذه الأمنية اليتيمة فى صدره ، ولم يشرك أحداً فى سره ، ولم يكثر من الكلام عن الفن والصنعة فيه ؛ لأنه لا يؤمن إلا بالعمل والكدح فى سبيل الوصول إلى القمة والكمال .

ومرت السنوات ، وخرجت الألحان من رأسه متوالية متداركة . وكان يقضى الليلة بعد الليلة يعيد لحنه الأخير ، ويكرره حتى تتصلب أصابعه وتموت الحساسية من أطرافها ، فيلقى كمانه آسفاً ويترك الأوراق مكانها ويجر ساقيه إلى الفراش وفى قلبه حسرة توشك أن تهشمه . كلا . . . إنه لم يصل . . . لم يصل بعد . . . ولا تزال اللمسة السحرية للفن بعيدة عن هذه الألحان ، والانبثاقة الخالدة للجمال ضائعة بين ثنايا الأصوات .

وتراكمت الأوراق الخاملة على مكتبه ، وتراكمت الأحزان فى قلبه . وساءل نفسه وكأنه يتوسل إلى ربه : « ماذا ؟ ماذا ينقصنى ؟ »

وفى أيامه الأخيرة هذه أجاب فى ذلة قاسية :

— موهبة السماء . . . العبقرية . . . لم أعطها .

وبكى ونشج . ولما انتهى البكاء والنشيج بعد أن تركا فى قلبه يأساً خطيراً ، جلس يفكر ليصدر حكماً حازماً كعادته .

إنه خلق ليعيش فى السماء العالية للفن ، فهو لا يعرف لنفسه دنيا غير هذه ، ولكن سلمه إلى السماء واه قصير ، فكيف يعيش معلقاً بينها وبين الأرض ؟

كلا ! كلا ! ليس له أن يعيش بعد هذا . . . بعد هذه الليلة . .

وساءل نفسه أين يذهب ؟ وخطر فى ذهنه أن يمر على زميلته فى الغرفة المجاورة ، وهى فتاة ثرية شغفت بالرسم ، ودربت يدها عليه ، وكان أفق خيالها فسيحاً فوسعها أن تبرع فيه ، وركبها ما يركب أهل الفن من شطحات الذهن ، فاختارت غرفة فى هذا البيت تصنع فيها رسومها وإن لم تتخذها سكناً . وقد نشأت بينها

وبين جارها الموسيقى وشائج صداقة ، ميزتها عن ود الجيرة وصلتها ببقية الزملاء حرية سمحة ، نخلطته بنفسها ، وتبادلا خطرات الذهن وأمل السنين القادمة .

ونما كل منهما كالسرحة فى قلب صاحبه . غير أنهما لم يجسرا على أن يعرفا ما بينهما ويعطياه اسماً صريحاً يذكر به ، فصار كالقصة ينقصها العنوان وإن كانت لا تنقصها القدرة على الإيحاء بعنوانها الصحيح .

وعند ما خابت آماله فى فنه ، وهوى تحت ثقل أحوانه ، وقيَّد اليأس قلبه ، كانت كلماتها تنعشه وإن لم تشفه . فإنها لم تر فيما حدث له كارثة يتحطم وجوده من هولها . وإنما الفن شئ جميل حقًّا ، يلوِّن الحياة بلون بهيج سعيد ، ويعطى لرياحها اللافحة رقة تعين على تحملها ، ولكن غيابه لا يعنى الموت والفناء . وكانت تقول :

— إن ما يحزنك هو صورتك التى ترسمها لنفسك مترجحاً بين السماء والأرض ، كالسجين بين صور الماضى وأحلام المستقبل ، كالطائر فى القفص . إنك نود لو تكون إلهاً . ولكن من يدرى ! لعل هذه رغبة سببتها فورة الشباب ، وستنتهى وتترك لك نوعاً من الرضا ، وستنسى على الأيام رغبتك هذه ، وترضى بسجنك وتذهب فيه لاعباً ضاحكا فرحاً . بل سيأتى اليوم الذى تعجب فيه للطيور الشابة وهى تنطح بأجنحتها جدران القفص تريد الانطلاق .

فقال لها :

— كلا . . . لا أستطيع أن أحطم أجنحتى . . لست أملك الجرأة على هذا ، ولا أعرف كيف أعيش هنا ، على هذه الأرض ، كهؤلاء الأناسى الذين تموج بهم الحياة .

كانت تريد أن تبعث فى قلبه حب الحياة ، ولكن إخفاقه فى ألحانه يشتت محاولتها ويبددها هباء . وكان يرى فى نظراتها وعطفها ورغبتها فى إنهاضه دعوة عالية صريحة إلى عالمها كأنما توشك أن تقول له :

— لئن فاتك الفن ، إنك لم تضيع الحب . هو وحده قادر على أن ينسيك آلامك . . . ينسيك السجن وأجنحتك المكسيرة .

ولكن يأسه كان خطيراً يوحى له أن عمل الفنان فوق كل شئ ، حتى هذه السعادة الثمينة يجب أن يضحى بها من أجله . وضاعف آلامه علمه أنه يحطم قلبها ويقتل الزهرة الجميلة النادرة التى نبتت فيه .

وكان هــذه الليلة يريد أن ينفذ الحكم الذى أصدره . وتمنى لو يراها مرة أخيرة ويستمع إليها ويلمس يدها ، فهى منذ ليـال فى غرفتها تزعم أنها تعمل ، وإنما هى تتخذ العمل وسيلة للبقاء بجانبه حتى تنتهى هذه الشدة التى نزلت به . ولـكنه خشى أن تخور عزيمته ويتضاءل عزمه أمام حنانها ونظراتها الدافئة ، فترك طريق البيت . وتحدرت دمعات على خديه فصرّ على أسنانه يمنع نفسه من البـكاء ، وسار بقدم ثابتة إلى غايته .

وحين وصل إلى شاطئ النيل ، عند القنطرة الصغيرة التى تواجه المعرض كان الليل فى شيخوخته والقمر يشحب وقد أتعبه طول السهر . فاسند ظهره هنيهة إلى السور دون أن ينظر إلى الماء . كان يعرف تماماً علامَ هو مقبـل . وتصور نفسه فى الصباح ملقى على طين الشاطئ مشوه الوجه منتفخاً كقربة الماء وحوله الناس يتلاغطون ، فلم تزعجه هذه الصورة أو ترعبه ، بل همس وهو يعتلى السور :

— اننى لم أغضب أو أرض حين أرغمت على دخول هذه الحياة ، فلِمَ أرضى أو أغضب حين أرغم على الخروج منها ؟

وهوى إلى الماء . . .

وكان يحسب كل شئ قد انتهى ، فترك نفسه تغوص بقوة السقوط . ولما ظهر فوق الماء وجد أنه يحرك ذراعيه وجسمه بقوة جديدة ، وشعر بشئ من الزراية لنفسه ، فاستكان هنيهة ، ولـكنه أحس كأنه فى بحر من الدم ، وملأ الماء حلقه وطمس عينيه وأكربه فأوشك على الغوص . وكان له شئ من الدراية بالسباحة فعاد إلى الحركة وضرب الماء . وعجب لماذا صفا ذهنه فصار كالصحيفة البيضاء تستجيب لـكل ما يكتب عليهـا . وامتلأ الجو حوله بموسيقى أطلق عازفوها لأصواتها العنان يسابق بعضها بعضا . إنه يعرف هذه الألحان جيداً . . . هى ألحانه التى حكم عليها بالفناء والعدم . ورأى فجأة أنه لم يكن له حق الحكم . ليس من حقه أن يقتل هذه الأبناء ولا أن يخنق ما لم يخرج بعد إلى الحياة منهم . وتذكر أوراقه فى الغرفة يقلبها الهواء قبل أن يجمعها الزملاء كوما وتخرس إلى الأبد ، وامتلأ برغبة طاغية فى العودة إلى عمله . . وإلى صاحبته .

كلا . . . لن يحرم منهما . . . وصار كأن ذهنه يردد :

— العمل . . . والحب . . . كلاهما . . .

ووصل الشاطئ فارتمى عليه حتى لذعته برودة الفجر ، فقام يسير ببلولته يترنح ويتلفت خلفه وكأنه يخشى أن تجذبه إلى الماء أيد خفية .

وحين هم أن يدفع باب غرفتـه أحس يداً خفيفة توضع على كتفه وصوتها يهمس فى جزع : « أين كنت ؟ . . . إنك تقطر ماء ». ثم لـكأنها فهمت فندَّت عنها صيحة ذاهلة ، فالتفت إليها وأطال النظر فى وجهها وقرأ السؤال الحائر فى عينها ، ثم خفض رأسه وقال :

— نعم ! . . . (ثم بعد هنيهة قصيرة) : ولـكنى واثق أنه لم يكن جبناً . . .

وأرادت أن تتكلم ، ولـكنه وضع يده على فمها فى رفق وقال :

— فى الصباح . . . فى الصباح .

وأغلق الباب على نفسه .

وسمعته طويلا يعزف ألحاناً خافتة حتى أغلق النوم جفونها .

دروبش الجميل